غاب المحاسنى

ليبقى شعرا وذكرى

للدكتور عبد السلام العجيلى
أديب القصة والرحلات
مجلس النواب ـ سورية

لم تجمعنا صداقة حميمة ولا علاقة معلم بتلميذه. كان١٣٣ أفتى من أن يكون من اساتذتى واسنّ من أن اكون من لداته. ومع ذلك كنت أحس بقربه من القلب كأعز الاصدقاء، لأن نفسه كانت فى براءة الاطفال واى انسان يقدر على أن لا يكون صديقا لطفل وان كان ذلك الطفل كبيرا؟ وكنت كذلك اراه خليقا بان يكون واحدا من اساتذتى، وان لم اجلس امامه على مقاعد الدرس. اليس هو من الطبقة التى انفتحت على العالم المعاصر، عالم الغرب بآدابه الثرية وحياته المغرية، ومع ذلك لم تأسرها مفاتن ذلك العالم بل ظلت وثيقة الصلات بماضيها شديدة الاعتزاز بقوميتها مخلصة لادبها القديم والحديث ولتاريخها المجيد؟

قلت بأن زكي المحاسني كان في دراءة الاطفال. ملامح وجهه تعطيك هذا الانطباع عنه من اول نظرة تقع عينك فيها عليه. على أن وجهه المورد وتقاطيعه السمحة وابتسامته الصافية ما كانت غير عنوان مقتضب لما كانت تفصله سريرته الطيبة وما كان يشرحه نقاء نفسه. حتى حين تقدمت به السن، وما تقدمت به في الحقيقة كثيرا، ظل هذا الانطباع عنه في نفسي ثابتا. ظللت أرى فيه العفوية غالبة وأرى كم هي كبيرة قابليته للاندهاش مما يطلع عليه في هذه الحياة. وليس اكثر من هذا دلالة على توثب طارئ، كانت تسترعي انتباهي منه هذه الدهشة الطفولية مما يسمع ويرى من التصرفات السيئة للناس، وأخبار المسيئين الى الاخرين واليه، ما كانت تؤلمه بقدر ما كانت تفتح لنفسه ابواب التعجب والاستغراب إذ كان بعيدا عن الحقد وعن مرارة النقمة وعن السوداوية، وأين لذلك الطفل ان يحمل في قلبه غير الطيبة وان ينظر الى من حوله بغير عين البراءة والصفاء؟

كانت براءة الطفل في نفس زكي المحاسني ولم يكن فيها عبثه. وما كان ابعد زكي المحاسني عن العبث في حياته وفي عمله، يشهد بذلك تلامذته في مختلف المدارس وفي المعاهد العالية وفي جامعات الوطن العربي التي حظيت به مدرسا وباحثا. كما تشهد بذلك دراساته العلمية ومؤلفاته الكثيرة. وما كانت اهتماماته الادبية غير اهتمامات الباحث الجاد الرصين والعميق. أما علاقاته الانسانية فكانت علاقات الاخ العطوف والاب المستقيم الطريقة، من غير تشدد أو قسوة. وقد رأيته في لحات من علاقاته هذه واعماله تلك في

منصبه الثقافي في السفارة السورية في القاهرة، قبل الوحدة بسنوات، حين مررت بتلك السفارة زائرا، وفي عمله مديرا للتراث في وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق حين مررت بتلك الوزارة وزيرا. هذا غير ما رأيته منها في أبحاثه الادبية ومؤلفاته النقدية وفي شعره.

وهل يصح ذكر زكي المحاسني من غير أن يذكر شعره؟ يقول ابو العلاء في احدى رسائله ان ابا عبادة، يعني البحتري، ما كان يقوى على كتابة رقعة فكان يجعل المنظوم عوضا عن المنثور. ولو ان قارئا ادبيا لم تتصل به مؤلفات فقيدنا النثرية ودراساته الادبية واقتصرت قراءاته على ما نشرته المجلات للدكتور زكي المحاسني في اعوامه الاخيرة، لظن ان فقيدنا قد خلف البحتري في هذه الخلة. كانت مراسلاته الاخوانية[1] وتعليقاته الادبية في الصحف وفي المكاتيب

(١) من هذه الاخوانيات مادار بيني وبين الفقيد حول كتابه «أبو نواس: شاعر من عبقر». فقد اهدى الى رحمة الله كتابه ذاك عن ابي نواس، الحسن بن هانئ، بأبيات شعرية هي الاتية:

عبدَ السلام العجيلي ∴ قولْ اتى من قَيلِ
بحرٌ يجيء بشعر ∴ وقصةٍ ذات سيل
والطبُّ يغنى لديه ∴ وما به من وبل
فليت انى مريض ∴ يشفى هواى بنيلي
دواه. وهو جوادٌ ∴ على النهار وليلِ
اليك منى النواسى ∴ بخمرة دون غيلِ
قد عتقت فى دنان ∴ وحدثتك بميل
فى جلسة عاش فيها ∴ دهقانها فوق خيل =

الخاصة كلها شعرا، وشعرا بحتريا فى رشاقة اللفظ وجمال الصور وموسيقية الجرس، حتى لكأنه كان يستسهل النظم أكثر من نثر الكلام. وما أتاه ذلك الا من فيض القريحة وغنى اللغة ويسر انطلاق الكلام الموزون المقفى على لسانه، وهى خصائص لازمت كل شعره. وقد حملت مجلة الاديب البيروتية بصورة خاصة كثيرا من عطائه الشعرى فى اخوانياته وقد اشترك معه فى النظم اصدقاؤه، وكان فى أغلبها هو البادئ فى اثارتها وفى دفع اخوانه الى مجاراته. ولو تتبعت هذه الاخوانيات وسجلت لتألف منها كتاب طريف فى موضوعه، قيم فى فائدته.

وبعد فان كثيرين غيرى، ممن جمعتهم بفقيدنا الدكتور زكى المحاسنى رحمه الله علاقة العمل المشترك أو وشائج الصحبة

= فاسكرت مثل فن ∴ تصوغه يا عجيلى

٨ ايار ١٩٧٠

وقد اجبته على تلك الابيات بأبياتى التالية:

اتانى ابن هانى قد تناهى محاسنا ∴ بما دبجت يمنى زكى المحاسنى
اعدت بهذا السفر للناس ذكره ∴ وأنبهته من بعد طول التهاون
وقمتَ له بالعذر عن كل ما حسا ∴ وما عبٌ فى دنيا الطلا والشوادن
رأيتَ عطاء العبقرية شافعا ∴ بنزغات عربيد وفتكات ماجن
فمن لى باحسان «الزكى» وحلمه ∴ اذا نصب الميزان يوم التغابنِ
لعل كلاما طيبا كنت قلته ∴ يكفر عن عابٍ اتيت وشائن
شكرت قريضا صغته بمهلهل ∴ يكفر عن عاب اتيت وشائنِ
واين من التيار قطر سحابة ∴ وكيف يفى شكرى بفضل المحاسنى

والصداقة، قادرين عل ان يتحدثوا عنه حديثا يفى باحسانه ويجلى عن مآثره أكثر مما استطيع فعله أنا فى هذه الكلمات القليلة. ما أردت قوله فى هذه الكلمات هو أن أحملها شعورى أمام فقد المحاسنى رجل الادب شاعرا وباحثا، الفائض النفس باحاسيس الحب والطيبة، الذى وهب من علمه وادبه هبة الكريم غير منتظر ثواب من اعطى على ما أعطى. كما أردت أن أقرن شعورى ذاك بشعور التقدير والتحية لرفيقة حياته السيدة وداد سكاكينى المحاسنى، وأنا واثق بان الم فقد الجسوم وافتراقها فى هذه الدنيا الفانية لا ينسيها أن شريك ـ حياتها قرين لها حى بأدبه وشعره، وبما خلفه فى نفوس اصدقائه وتلاميذه وقرائه من ذكرى متوقدة بشعلة الحياة ونبيلة بصدقها ومحتواها.

***